التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص: 37)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار(1)، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهج بذكره آناء الليل والنهار؛ وجعلها تؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صل وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.===

(1) وهذا من براعة الاستهلال.

=== أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمدا ذلك من كتاب الله الكريم - الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقا لا مزيد عليه -(1) ومن سنة نبيه محمد ﷺ؛ التي توافق الكتاب وتفسره(2)، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيرا من مطلقاته. مبتدئا بتفسيره، مثنيا بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مثلثا بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

(1) { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم } وقال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين }.
(2) {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } .

قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا(1) كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ(2) وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(3) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ(4) بِإِذْنِ رَبِّهَا(5) وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(6)}(7) فمثل الله كلمة الإيمان - التي هي أطيب الكلمات - بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة؛ أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.===

(1)فالأمثال التي ضربها الله تعالى في القرآن من أعظم أسباب الهدى ، وقد أخبر تعالى وبيَّنَ أن هذه الأمثال جزءٌ من حجته على خلقه وأنه لم يعذب أمة إلا بعد أن ضرب لها الأمثال ، لأنه بضرب الأمثال يصبح الأمر بيّنا واضحا تقوم به الحجة وتنقطع به الشبهة، قال تعالى { وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} وقال تعالى {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ

فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} . وهذه الأمثلة إنما هي أقيسة عقلية .

(2) وثبات الأصل يكون بالعلم وما يثمره من العقائد النافعة وأعمال القلوب { فاعلم أنه لا إله إلا الله } وهذا بالنظر في براهين التوحيد وتفاصيل اليوم الآخر.

(3) قالوا وإن كان المؤمن في الأرض إلا أنه مع الله تعالى في معيته وحفظه وكرامته { إن الله يدافع عن الذين آمنوا } .

(4) إذا كانت صفة المشبه تقصُر عن بيان المشبه به فإنه يضاف إلى المشبه به ما يعزز من صفته ويكمّلُ من نقصه في حقيقته، ولهذا جاء عن ابن عباس قال هي شجرة في الجنة.

(5) فشجرة الإيمان وثمراتها هي محض فضل الله فلا تُعجَب بعملك {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} .

(6) قال تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} والتفكر خطوة تسبق التذكر ، والتفكر هو إعمال العقل في الأمثال وإدراك ما فيها من الحكم والعبر ، فإذا عرفوا هذا تذكروا ، والتذكر هو العمل المبني على العلم

ويدل على قوله تعالى { فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } فحصر التذكر في أهل التفكر، ثم أخبر تعالى أن أهل التذكر هم العاملون بعلمهم فقال { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ = وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ = وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ }

(7) وهذا المثل لو تأمل العبد ما سبقه من الآيات لوجد فيها ذكر أنواعٍ من الفتن، فذكر فتنة الطغاة وفتنة الشيطان وخطبتَه المشهورة ، ثم جاء هذا المثل لبيان أعظم سبب يحصل به النجاة ـ بعد فضل الله تعالى ـ من شر هذه الفتن وهو العناية بترسيخ الإيمان وتقويته والحرصُ على والعلم والعمل .

=== وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتا عظيما، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها علما وعملا. فإن نصيبه - من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة - بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

& الفصل الأول : في حدّ الإيمان وتفسيره.

حدودُ الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامَها؛ فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصورا يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشا.(1)===

(1) والتفسير الأنسب للإيمان في اللغة أن الإيمان هو الإقرار لا مجرّد التصديق ، والإقرار يتضمن قول القلب الذي هو التصديق وعملَ القلب الذي هو الانقياد، والمراد بقول القلب اعتقاد صحة الخبر وصدق المُخبِر، لأنه قد يعتقد الانسان صدق الخبر مع تكذيبه للمخبِر كما في الحديث " صدقك وهو كذب " والمراد بعمل القلب الثقة والطمأنينة والعزم على القيام بمقتضى الخبر. قال شيخ الإسلام : إن الإيمان مشتق من الأمن وإنما يستعمل في خبر مؤتمَنٍ عليه المخبِر كالأمر الغائب، فاللفظ يتضمن مع التصديق معنى الائتمان كما يدل عليه الاشتقاق والاستعمال ، ولهذا قالوا { وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين } وفي الحديث (المؤمن من أمنه الناس في دمائهم وأموالهم) .

=== أما حدّ الإيمان وتفسيره، فهو التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛

والانقياد ظاهرا وباطنا(2). فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن. وذلك شامل للقيام بالدين كله. ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.(3) وهو قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله. ===

(2) والشيخ فسّر الإيمان الكامل لا الأصلَ. (3) وهذا التعريف فيه إجماع قال ابن كثير في تفسيره : وقد حُكي الإجماع عن غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد وأبي عبيد. اهـ وحكى الإجماع شيخ الإسلام وابن القيم وكذلك ابن عبد البر. وهذا الإجماع استقرائي بمعنى أن أهل العلم تتبعوا أقوال أئمة السلف في وقت معيّن فوجدوا أنهم لا يختلفون ، وسببُ اعتناء العلماء بنقل كلام السلف في مفهوم الإيمان وجود هذه الزلّة من الإمام أبي حنيفة، وأبو حنيفة لم يبلغه الإجماع، وذلك لأن الذين حكوا الإجماع كانوا معاصرين له أو متأخرين عنه.

=== فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى - من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته - هو من أعظم أصول الإيمان.(1) ===

(1) وهذا الأصل جعله الله تعالى غاية { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }.

=== وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو التأله والتعبد لله ظاهرا وباطنا - من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة؛ كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن من أعظم أصول الإيمان؛ الاعترافَ بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادةَ الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله(1) ، والقيامَ بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كلُّ هذا من أصول الإيمان. ===

(1) فالذين يؤمنون بالله ويقرون بألوهيته وربوبيته كثير، فما الفرق بين هؤلاء وبين المؤمنين حقا ؟ الفرق هو التوحيد، بمعنى أن أتباع الأنبياء يقيمون إيمانهم على توحيد خالص في الربوبية والألوهية، وهذه المعاني كلها

بُيّنتْ في آية واحدة وهي قوله تعالى { قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} فالتوحيد الخالص يصبح به الإيمان معتبرا.

=== ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار(1) ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا من شموله للعقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح. لأنه متى فات شيء من ذلك حصل من النقص وفواتِ الثواب وحصولِ العقاب بحسبه. ===

(1) أي الكمال الواجب والدليل قوله تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ} ثم قال في الآية التي بعدها { وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } فيحمل المطلق على المقيد المقرونِ بالعمل الصالح.

=== بل أخبر الله تعالى أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}. والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء في

الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة.(1)===

(1) وأشهد آية تدل على أن الصديقين ما استحقوا هذه الدرجة إلا أنهم كمّلوا إيمانهم بالأعمال الصالحة هي آية البقرة { لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وهذه الآية ذكرها البخاري في الصحيح في باب أمور الإيمان أي الأمور التي لا يكمل الإيمان إلا بها.

=== ويفسّرُ ذلك ويوضّحُه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، قال: «إن أهل الجنة(1) ليتراءَوْنَ أهلَ الغرف(2) في الجنة، كما تراءون الكوكبَ الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم) فقالوا: " يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرُهم " قال: (بلى - والذي نفسي بيده - رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين) . ===

(1)أهل الجنة في الحديث يراد بهم الأبرار وأصحاب اليمين. (2) هم من حقق الإيمان المستحب ويدل على هذا ما ورد في سورة الفرقان { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ... } ثم ذكر أوصافهم التي تدل على أنهم أقاموا دينهم على المسارعة في الخيرات، ثم قال {أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا } .

=== وإيمانُهم بالله وتصديقهم للمرسلين في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.(1) ===

(1) والمؤلف أراد بهذا الفصل فائدتين: الأولى أن هذا الطريق ميّسر لكل مؤمن وليس خاصا بالأنبياء والمرسلين، وهذه الحقيقة بينت في قوله تعالى { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ .... ثُلَّةٌ(×) مِنَ الْأَوَّلِينَ & وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ(× ×) } . والثانية أن هذه المراتب تنال بتحقيق الإيمان ظاهرا وباطنا، لكن من فاتته هذه المرتبة فليحرص على أن تفوته مرتبة الصالحين وهم الأبرار. والله المستعان.(×××)

(×) قال السعدي أي جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم .

(× ×) قال السعدي وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخّريها لكون المقربين من الأوّلين أكثرَ من المتأخرين .

(×××) وتأمل المفارقة بين حال المقربين والأبرار في قوله تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ = عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ = تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ = يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ = خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ = وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ = عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ } .

=== وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه من الانقياد والاستسلام، وأثنى على من قام به(2)؛ فقال في أعظم آيات الإيمان: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ(3) وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ(4) وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(5)} .===

(2)وهذا شروع من المؤلف في بيان الأدلة على أن تحقيق الإيمان لا يكون إلا بالانقياد ظاهرا وباطنا. (3) هذا الركن الأول من أركان الإيمان. (4) هذا فيه الإيمان بالكتب والرسل . (5) فيه ذكرُ الإيمان العملي الذي هو عمل الجوارح.

=== فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده - بقوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} .

كما أثنى على المؤمنين - في آخر السورة - بالقيام بذلك فقال: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} .(1) ===

(1) فأعلنوا عن استعدادهم بأنهم سيقومون بكل ما كُلّفوا به ويسألون الله أن يعاملهم باللطف والعفو إذا حصل منهم تقصير بما التزموا به، فهذه آية بيّنت حقيقة إيمان الصادقين وأنه مشتمل على الاعتقاد والقول والعمل.

=== فأخبر أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء بل آمنوا بهم جميعا، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا { سمعنا وأطعنا } وطلبوا من ربهم أن يحقق لهم ذلك(1) وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما

قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء - عيسى وغيره - إنهم قالوا: { رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(2) }. فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به قولا، وعملا، واعتقادا.===

(1) كأن الشيخ يشير أن قولهم { سمعنا وأطعنا } لها جهتان : جهة يراد بها بيان التزامهم بطاعة الله، وعليه فالجملة خبرية على ظاهرها ، والجهة الثانية كون الجملة خبرية يراد بها الإنشاء أي اجعلنا ممن سمع وأطاع. والله أعلم .

(2) قال شيخ الإسلام: وَلَمَّا كَانَ أَصْلُ الدِّينِ الشَّهَادَتَيْنِ : كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الشُّهَدَاءَ وَلَهَا وَصْفُ الشَّهَادَةِ . وَالْقِسِّيسُونَ لَهُمْ الْعِبَادَةُ بِلَا شَهَادَةٍ وَلِهَذَا قَالُوا : { رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } وهذا فيه التنبيه على شرف هذه الأمّة وأن دينها أكمل ما يكون علما وعملا .

=== وقال تعالى: {إِنَّمَا(1) الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ(2) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا (3) (4) وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(5) الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ(6) وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(7) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا(8) لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } ===

(1) قال ابن عاشور : هذا قصر ادعائي بتنزيل الإيمان الذي عدم الواجبات المذكورة منزلة العدم. اهـ

(2) فإذا ذكّر بالله وإذا قيل له اتق الله لم تأخذه العزة بالإثم.

(3) قال السعدي : ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم،.لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. اهـ

(4) قال الرازي : وجميع التكاليف داخل تحت هذين الوصفين ـ يريد وجل القلب والاتعاظ بالقرآن ـ إلا أنه تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين ، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة على التعيين تنبيهاً على أن أشرف الأحوال الباطنة التوكل وأشرف الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة. اهـ

(5) وهذا فيه التنبيه على حق الله ، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله.

(6) هذا حق النفس.

(7) هذا حق الخلق.

(8) مصدر مؤكِّد لمضمون جملة { أولئك هم المؤمنون}.

=== فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيمانا ظهرت آثارُه في عقائدهم(1) وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة ===

(1) لقوله { وعلى ربهم } ففيه الإشارة إلى المعرفة التفصيلية بمقام الربوبية .

=== وأنه - مع ثبوت الإيمان في قلوبهم - يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه.(1)

(1) قال المتكلمون من الصوفية: التوكل منزلة العامة وكذلك الخوف والرجاء . قال شيخ الإسلام: يمكن أن توجه عبارتهم بأن التوكل إذا كان متعلقه الحظوظ الدنيوية

فهو منزلة العامة وإذا كان متعلقه تحقيق الإيمان والاستقامة فهذا منزلة الخاصة ، كذلك الخوف والرجاء إذا كان يخاف فوات نعيم الجنة فهذا منزلة العامة وإذا كان يخاف أن يفوته النظر إلى وجه الله الكريم فهذا منزلة الخاصة .

=== وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها يقيمونها ظاهرا وباطنا(1) ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ===

(1) قال أحد السلف " إني لا أحمل همّ الدخول في الصلاة وإنما أحمل همّ الخروج منها " فالسلف حققوا تعظيم الله تعالى ظاهرا وباطنا ، والصلاة إنما شرعت لذكر الله وتعظيمه ظاهرا وباطنا .

=== ومن كان على هذا الوصف فلم يُبْقِ من الخير مطلبا، ولا من الشر مهربا. ولهذا قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهرا وباطنا. ثم ذكر ثوابهم الجزيل؛ المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

ففسر الله الإيمان - في هذه الآيات - بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} ، إلى آخر الآيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقا. ومضمونها القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات.

وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب ذلك؛ أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها، وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات. وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات. كما ذكرهم الله بقوله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف. لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفي فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} : ثم يذكر خبرا عنهم. والأعمال الصالحات: من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن - وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، ومن ترك المحرمات - فليس بصادق في إيمانه.(1)===

(1) وتأمل قوله تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } . و " التَّوَلِّي " هُوَ التَّوَلِّي عَنْ الطَّاعَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { سَتُدْعَوْنَ إلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ

تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } . وَقَالَ تَعَالَى : { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى } { وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : { لَا يَصْلَاهَا إلَّا الْأَشْقَى } { الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } وَكَذَلِكَ قَالَ مُوسَى وَهَارُونُ : { إنَّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } . فَعُلِمَ أَنَّ " التَّوَلِّيَ " لَيْسَ هُوَ التَّكْذِيبَ بَلْ هُوَ التَّوَلِّي عَنْ الطَّاعَةِ فَإِنَّ النَّاسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُصَدِّقُوا الرَّسُولَ فِيمَا أَخْبَرَ وَيُطِيعُوهُ فِيمَا أَمَرَ . وَضِدُّ التَّصْدِيقِ التَّكْذِيبُ وَضِدُّ الطَّاعَةِ التَّوَلِّي فَلِهَذَا قَالَ : { فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى } { وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى }. اهـ شيخ الإسلام

=== كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ(1) آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}

(1) وكأن سائلا قال " من هم أولياؤك يا ربّ صفهم لنا حتى نسعى في تحصيل صفاتهم ودرجاتهم .

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (1)===

(1) حذف المعمول يدل على العموم أي إنهم اتقوا كل شيء في سبيل مرضاة الله تعالى ، قال الثوري " إنما سمّو المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى " وقال ابن عمر " إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سُترة من الحلال لا أخرقها " وفي الحديث (لا يبلغ أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس).

=== كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} .(1)===

(1) وتأمل قَول الله عَزَّ وَجلَّ: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ} قَالَ محمد بن نصر المروزي: لَمَّا كَانَتِ الْمَعَاصِي بَعْضُهَا كُفْرًا وَبَعْضُهَا لَيْسَ بِكُفْرٍ، فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فَجَعَلَهَا ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، نَوْعٌ مِنْهَا كُفْرٌ، وَنَوْعٌ فِسْقٌ وَلَيْسَ بِكُفْرٍ، وَنَوْعٌ عِصْيَانٌ وَلَيْسَ بِكُفْرٍ وَلَا فُسُوقٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ كَرَّهَهَا كُلَّهَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَّا كَانَتِ الطَّاعَاتُ كُلُّهَا دَاخِلَةً فِي الْإِيمَانِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا خَارِجًا مِنْهُ، لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا فَيَقُولُ: حَبَّبَ الْإِيمَانَ وَالْفَرَائِضَ وَسَائِرَ الطَّاعَاتِ، بَلْ

أَجْمَلَ ذَلِكَ فَقَالَ: {حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ} فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ جَمِيعُ الطَّاعَاتِ. اهـ

=== فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في الصحيح - من حديث أنس رضي الله عنه - أنه ﷺ، قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان(1) أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله(2) وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار(3)» ===

(1) والقلب إنما يجد حلاوة الإيمان إذا سلم من أسقامه وآفاته وهي الشهوات والشبهات ، ومن هنا جاء في الحديث (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) لأنه لو كمل إيمانه لاستغنى بحلاوة الإيمان عن استحلاء المعصية ، قال ذو النون " كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه كذلك لا يجد القلب حلاوة العبادة مع الذنوب " .

(2) وقد هدّد الله تعالى المؤمنين الأوّلين أعظم تهديد فقال {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ

بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} لكن هذا التهديد لم يُنفّذ فيهم لأنهم كانوا كما وصفهم الله { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } . ومن الدعاء المأثور (اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يبلغني حبك).

(3) سئل ذو النون " متى أحب ربي ؟ قال : إذا كان ما يكرهه أمرّ عندك من الصبر ". وتأمل قول يوسف { ربي السجن أحب إلى مما يدعونني إليه }. وقيل لأحد السلف " لو أجّجت نار وقيل من دخلها نجا من جهنم هل كنت تدخلها ؟ فقال : بل كنت أخشى أن تخرج نفسي فرحا بها قبل وصولي إليها " .

فائدة: سئل عمر عن قوم يشتهون المعاصي ولا يعملون بها ، فقال { أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم }.

=== فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله، ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب. وذكر تفريقها بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه. وذكر

دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة.(1) ===

(1) قال شيخ الإسلام : فقد بيَّن أن مثلَ ما بعثه الله به من الهدى والعلم مثل الغيث الذي تشربه الأرض، فتُخرِج فنون الثمرات، وتمسكه أرض لتنتفع به الناس، وأرضٌ ثالثة لا تنتفع بشربه ولا تمسكه لغيرها. فتبين أن القلوب تشرب ما يُنزله الله من الإيمان والقرآن، وذلك شراب لها، كما أن المطر شراب للأرض، والأرض تَعطَش وتَروَى، كذلك القلب يعطش إلى ما ينزله الله ويَروى به. وهو سبحانه الذي يطعمه هذا الشراب، وهو سبحانه لا يطعمه أحد شيئًا، بل هو الذي يُعلِّم ولا يتعلم من غيرِه شيئًا. وفي مناجاة داود: إني ظَمِئْتُ إلى ذكرك كما تَظمأُ الإبلُ إلى الماء، أو نحو هذا، لبعد الإبل عن الماء وشدة عطشها إليه. وقد قال القائل:

شربتُ الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ فما فَنِيَ الشرابُ وما رَوِيْتُ

ويقال: فلان ريّان من العلم، ويقال: هذا الكلام يَشفِي العليل ويُروِي الغليل، وهذا الكلام لا يَشفِي العليل ولا

يُروِي الغليل. وفي حديث مكحول المرسل : "من أخلصَ لله أربعين يومًا تفجرت ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه". وقال ابن مسعود لأصحابه : " كونوا ينابيع العلم مصابيحَ الحكمة أحلاسَ البيوت سُرُجَ الليل جُددَ القلوب أخلاقَ الثياب، تُعْرَفون في السماء وتخفون على أهل الأرض".

والمقصود هنا كان الكلام في أن الله يُطعِم القلوب ويسقيها، وقد قال الله تعالى في حق عُبَّاد العجل: (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي أُشرِبوا حُبَّه. فحب الربّ تعالى أن يكون شرابًا يشربه قلوب المؤمنين أولى وأحرى.

وهو سبحانه الذي يُطعِم عباده المؤمنين، ويسقيهم شراب معرفته ومحبته والإيمان به، وأهل الشرك الذين يعبدون غير الله ومن ضاهاهم من أهل البدع، الذين اتخذوا من دون الله أوثانا يحبونهم كحبّ الله، لهم شراب من محبتهم وذوق ووجد، لكن ذلك من عبادة الشيطان لا من عبادة الرحمن، فلهذا وقعت باطلاً. فإن البدن كما يتغذى بالطيب والخبيث، كذلك القلوب تتغذى بالكلم الطيب والعمل الصالح، وتتغذى بالكلم الخبيث والعمل الفاسد، ولها صحة ومرض، وإذا مرضت اشتهتْ ما يضرها وكرهتْ ما ينفعها. وقد ضرب الله مثل الإيمان الذي هو كلمة طيبة بشجرة طيبة، ومثل الشرك الذي هو كلمة خبيثة بشجرة

خبيثة، فهذا أصله كلمة طيبة في قلبه وهي كلمة التوحيد، وهذا أصله كلمة خبيثة في قلبه وهي كلمة الشرك؛ فهذا يتغذى بهذه الكلمة الطيبة، وهذا يتغذى بهذه الكلمة الخبيثة، كما تتغذى الأبدان بالطيب والخبيث. اهـ من جامع المسائل

قول السعدي " أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته... " قال اب القيم : استشهد صاحب المنازل على إثبات منزلة الوجد بقوله تعالى في أهل الكهف { وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِدْلَالِ وَالِاسْتِشْهَادِ. فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا بَيْنَ قَوْمِهِمُ الْكُفَّارِ فِي خِدْمَةِ مَلِكِهِمُ الْكَافِرِ. فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَجَدُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْفِيقِ. وَذَاقُوا حَلَاوَتَهُ. وَبَاشَرَ قُلُوبَهُمْ. فَقَامُوا مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} . وَالرَّبْطُ عَلَى قُلُوبِهِمْ: يَتَضَمَّنُ الشَّدَّ عَلَيْهَا بِالصَّبْرِ وَالتَّثْبِيتِ، وَتَقْوِيَتَهَا وَتَأْيِيدَهَا بِنُورِ الْإِيمَانِ، حَتَّى صَبَرُوا عَلَى هِجْرَانِ دَارِ قَوْمِهِمْ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ خَفْضِ الْعَيْشِ. وَفَرُّوا بِدِينِهِمْ إِلَى الْكَهْفِ.اهـ من مدارج السالكين.

== فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعا - فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره(1) - واجتهد في متابعة

الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. (2) ===

(1) قال ابن القيم : من فوائد الذكر أن الذكر شفاء القلب ودواؤه والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى . اهـ

(2) وتأمل قول الله تعالى { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} قال بعض السلف هي في أهل البدع .

=== ومن كان كذلك، فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام؛ فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا}

وكذلك في الصحيحين - من حديث أبي هريرة - أنه صلى الله عليه وسلم قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان» .

وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمع في هذا الحديث بين أعلاه

وأصله وقاعدته - وهو قول لا إله إلا الله اعتقادا، وتألها، وإخلاصا لله - وبين أدناه، وهو إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي، عن الطريق. فكيف بما فوق ذلك من الإحسان. وذكر الحياء - والله أعلم - لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح. كما به يتحقق كل خلق حسن.(1)===

(1) قال ابن القيم : قلة الحياء من موت القلب فكلّما كان القلب أحيا كان أشدّ حياء. اهـ قال أحد السلف " إذا أراد الله بعبده هلاكا نزع منه الحياء، فإذا نُزع منه الحياء لم تلقَه إلا مقيتا مُمقّتا " وقال آخر " من كساه الحياءُ ثوبه لم ير الناسُ عيبه ".

=== وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وهذا - أيضا - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص(1) بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتا كثيرا. فمن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد خالف الحس، مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى. ===

(1) دليل الزيادة قوله تعالى { ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم } ودليل النقصان حديث (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ). قال ابن كثير في تفسيره " وقد حكى الإجماع عليه غيرُ واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد وأبي عبيد القاسم بن سلاّم ". اهـ وقال ابن عبد البر " وذكر عن مالك روايتان في إطلاق النقص : إحداهما التوقف والثانية موافقة الجماعة ". اهـ

=== وقد ذكر النبي - ﷺ - الإسلام والإيمان في حديث جبريل المشهور، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر» وفسّر الإسلام بالشرائع الخمس الظاهرة. لأنه - كما تقدم - إذا قرن بالإيمان غيره، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية والإسلام أو الأعمال الصالحة بالشرائع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمع.(1)===

(1) بعض أهل العلم من أهل السنة كالبخاري يرون ترادف الإسلام والإيمان، والصحيح أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا .

فائدة: لا يصح الإيمان إلا بقدر من الإسلام مصحّح له ، ولا يصح الإسلام إلا بقدر من الإيمان مصحّح له، وهذا

وجه من أوجه تلازم الظاهر والباطن، قال شيخ الإسلام " فَلَا يُتَصَوَّرُ مَعَ كَمَالِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ الَّذِي فِي الْقَلْبِ أَنْ تُعْدَمَ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ الْوَاجِبَةُ؛ بَلْ يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ هَذَا كَامِلًا وُجُودُ هَذَا كَامِلًا، كَمَا يَلْزَمُ مِنْ نَقْصِ هَذَا نَقْصُ هَذَا؛ إذْ تَقْدِيرُ إيمَانٍ تَامٍّ فِي الْقَلْبِ بِلَا ظَاهِرٍ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ كَتَقْدِيرِ مُوجَبٍ تَامٍّ بِلَا مُوجِبِهِ وَعِلَّةٍ تَامَّةٍ بِلَا مَعْلُولِهَا وَهَذَا مُمْتَنِعٌ " . اهـ

=== وفي الصحيحين - من حديث أنس - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه إذا تعارضت المحبتان، فإن قدم ما يحبه الرسول كان صادق الإيمان، وإلا فهو ناقص الإيمان.

كما قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} .

فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقيادا، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.(1)===

(1) فقد أبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه سيأتي أناس من أمته لا يحتجون بسنته ونشأ بعد ذلك من لا يحتج بخبر الآحاد في العقيدة.

=== وفي الصحيحين أيضا - عن أنس مرفوعا -: («لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه») . وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة، فإنه من الإيمان.(1) ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.===

(1) وفي الحديث الذي حسنه الألباني (ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرا).

=== وفي صحيح مسلم - من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا)(1)===

(1) قال ابن القيم " ولما كانت الحلاوة أخصّ من الطعم قرن بها الوجد الذي هو أخصّ من مجرد الذوق، فقرن الأخص بالأخص والأعمَّ بالأعمّ ". اهـ

=== والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه(1) و [أن] يرضى بالإسلام دينا، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له ويرضى بمحمد ﷺ نبيا إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال. وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.===

(1) قال ابن القيم " وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضي فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة لا يخرج عن ذلك البته كما قال في الدعاء المشهور (اللهم اني عبدك ابن عبدك أبن أمتك ناصيتي بيدك(أ) ماضٍ فيّ حكمُك(ب) عدلٌ فيّ قضاؤك(ج)) " اهـ

(أ) فيه الإقرار بالعجز. (ب) أي لك الملك. (ج) أي لك الحمد.

=== فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، وأتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته.(1)===

(1) قال شيخ الإسلام " إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل الجنة الآخرة " وقال " سعادة في العباد في معادهم ومعاشهم باتباع الرسالة ".

=== قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ(1) يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}===

(1) وقراءة فاطمة رضي الله عنها { من أنفَسِهِم } أي من أشرفهم نسبا ، وقوله { من أنفُسهم } أي جنسهم إشارة إلى قوله تعالى { أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون } وعُلّق بفعل { بعث } حرف " في " ولم يعلق به حرف " إلى " كما في قوله تعالى { إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم } لأن ذلك مقام احتجاج وهذا مقام امتنان .

=== فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه، وهذا علامة محبة الله، وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان! قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ }.(1)===

(1) قال ابن القيم : لَمَّا كَثُرَ الْمُدَّعُونَ لِلْمَحَبَّةِ طُولِبُوا بِإِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ عَلَى صِحَّةِ الدَّعْوَى، فَتَأَخَّرَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، وَثَبَتَ أَتْبَاعُ الرَّسُولِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ. اهـ

=== وفي صحيح مسلم - من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي - قال: (قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك، قال: قل آمنت بالله ثم(1) استقم(2))==

(1) قال أبو حيان : " ثم " لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة وفضلِها عليه لأن الاستقامة لها الشأن كلّه . اهـ

(2) قال عمر رضي الله عنه " الاستقامة أن تقوم على الأمر والنهي ولا تروغَ روغان الثعلب " . وقال ابن القيم : وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الْعَبْدِ الِاسْتِقَامَةُ. وَهِيَ السَّدَادُ. فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا فَالْمُقَارَبَةُ. فَإِنْ نَزَلَ عَنْهَا: فَالتَّفْرِيطُ وَالْإِضَاعَةُ. اهـ فالحديث فيه بيان قاعدة التزكية وهي العلم والعمل لأن الشر إما شبهة أو شهوة .

=== فبين ﷺ - بهذه الوصية الجامعة - أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهرا وباطنا، ثم استقام عليه - قولا وعملا، فعلا وتركا - فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله

عنهم: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ(1) ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ(2) أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(3) نُزُلًا(4) مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (4)} .===

(1) { ربّنا الله } فيه تعريف جزءَي الإسناد . (2) قال زيد بن أسلم " هذا عند الموت " .(3) ومعنى { ما تدّعون } ما تتمنّون ، يقال " ادّعى " إذا تمنّى . فما يدّعون غير ما تشتهيه أنفسهم ، ولهذه المغاير أعيد { لكم } ليُؤذن باستقلال هذا الوعد عن سابقه فلا يتوهم أن العطف عطفُ تفسير أو عطف عام على خاص . (4) فهذا النعيم المذكور{ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ } هو مجرّد نُزل أي ضيافة وليس هو النعيم الكامل { فلا تعلم نفس ما أخفي عليهم من قرّة أعين ... } (6) فبمغفرته أزال عنك المحذور وبرحمته أنالكم المطلوب .

=== وفي حديث ابن عباس - المتفق عليه - في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ حيث قالوا: (مرنا بأمر فَصْلٍ نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة) وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان

بالله وحده [و] قال: « (أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟) قالوا: (الله ورسوله أعلم) ، قال: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس) ونهاهم عن أربع: (عن الحنتم، والدباء، والنقير، والمزفت) وقال: (احفظوهن، وأخبروا بهن من وراءكم)

فهذا - أيضا - صريح في إدخاله الشرائع الظاهرة بالإيمان، مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم.(1) وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيرا يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما قرب إلى الله - من قول وعمل واعتقاد - فإنه من الإيمان.===

(1)المرجئة يقولون إطلاق اسم الإيمان على الأعمال كما في النصوص المصرحة بذلك من باب المجاز نحو حديث (الإيمان بضع وستون شعبة...) أي من إطلاق السبب وإرادة المسبَّب لأن الدافع على تحقيق هذه الشعب هو الإيمان .

=== وفي سنن أبي داود، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: («من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان») .(1)===

(1)وعدّي إلى لفظ (الإيمان) للمبالغة (أ) لزيادة السين والتاء المستدعية لتجريده من نفسه شخصا آخر يطلب منه تكميل الإيمان .(ب)

(أ)والأصل " فقد كمُلَ إيمُانه ". (ب) فعلامة السعادة والتوفيق وجود واعظ من نفسك أسرعْ الناسُ سبقوك إلى الجنة. والله المستعان .

=== فالحب والبغض في القلب والباطن والعطاء والمنع في الظاهر. واشترط فيها كلها الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله أن يحب الله، ويحب ما يحبه من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال ويحب من يحبه من أنبيائه وأتباعهم.(1)===

(1)وعلامة الحب في الله أن لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

=== والبغض في الله أن يبغض كل ما أبغضه [الله] من كفر وفسوق وعصيان ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به مثل قوله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} . وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد، لا يختص بالعطاء المالي، بل هو جزء من العطاء.(1) وكذلك مقابله المنع. (2) وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه (3).===

(1)قال ابن عاشور " وحذف مفعول { أعطى } لأن فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال دون عوض ينزّل منزلة اللازم لاشتهار استعماله في إعطاء المال" . اهـ

(2) فالآية جمعت جميع الأسباب التي تنال بها السعادة وهي ثلاثة أشياء: فعل المأمور واجتناب المحظور وتصديق خبر الله ورسوله .

(3)وهي الحب والبغض والعطاء والمنع.

=== وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي - من حديث أبي هريرة مرفوعا «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم» يدل: على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه

على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه - كما قال الحسن وغيره: " ليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال."

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدِّق الإيمانَ، وبها يتحقق. كما قال تعالى: { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} . فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده، هدى الله قلبه هداية خاصة للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ}. فحذف المتعلق؛ ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر؛ وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.(1)===

(1)والقاعدة الفقهية " الواحد بالشخص هل تجتمع فيف الجهتان " وإن كان المالكية أوردوها في صيغة استفهامية توحي بوقوع الخلاف فيها فإن المقرّي أكّد أن أصل مالك

اعتبار جهتي الواحد فيقدّر اثنين، ومن فروع القاعدة إذا كان لذي رحم قرابتا ورث بهما كالزوج إذا كان ابن عمّ.

فائدة: الدافع للمعتزلة والخوارج في القول بتخليد أهل الكبائر في النار أنهم يقولون الواحد بالعين لا تكون له جهتان أي لا يجتمع فيه الثواب والعقاب .

=== وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ(1) إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} . ===

(1)أتى بلفظ الخطاب دون الغائب ليتناول الماضين والباقين.

=== كثير من المفسرين فسروا الإيمان هنا بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها، بيت المقدس، قبل النسخ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم، فأنزل الله هذه الآية. وذلك أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله، وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى [وهي] : أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين(1) قلّ ذلك الإيمانُ أو كثر. كما ورد في الصحيح: (أن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان)===

(1)قال السعدي : وحفظه نوعان: حفظ عن الضياع والبطلان، بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم. اهـ

=== وبشارةٌ لكل من عمل عملا قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطئ، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل إيمانا بالله، وقصدا لطاعته، ولكنه تأول تأويلا أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل، فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

ولهذا قال الله عن المؤمنين: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } (1) قال الله على لسان نبيه: (قد فعلت)===

(1)تأمل كيف سألوا الله عدم المؤاخذة حتى في حال النسيان والخطأ، وهذا المقام أثر استشعارهم حق الله الكامل لا حقَّه الذي مبناه على رحمته ، فحق الله الكامل موجَبه أن يُذكر فلا يُنسى .

=== وفي الحديث الصحيح: (إذا اجتهد الحاكم فحكم، فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد، فأخطأ فله أجر واحد، وخطؤه مغفور له).

وكذلك من نوى عملا صالحا، وحرص على فعله، ومنعه مانع - من مرض، أو سفر أو عجز أو غيرها - كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم - من حديث أبي موسى مرفوعا -: «من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما» . ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

& فصل &

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان وتوابع ذلك من أمور الدين - بل هو اسم للدين كله - علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه لا شرعا، ولا حسا، ولا واقعا.

وذلك أن نصوص الكتاب والسنة صريحة في زيادته ونقصانه مثل قوله تعالى: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} {وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان، فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة - متفاوتون تفاوتا عظيما في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة. وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة. بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتا كثيرا في نفس العلم الذي عرفوه من علوم الإيمان: أحدهما: علمُه فيه قويٌّ صحيح لا ريبَ فيه ولا شبهة والآخرُ: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضا. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتا كثيرا، صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة كالصلاة: يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. والآخر يصليها بظاهره وباطنه مشغول بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب

أيضا، أهلها متفاوتون تفاوتا كثيرا. والعبد المؤمن - في نفسه - له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحيانا بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم - يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له، ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه، من علومه وأعماله وأحواله.(1)===

(1)قال ابن القيم : فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدمُ استحضاره وغَيبتُه عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها، لاشتغاله بما يضادّه، وانضمّ إلى ذلك استيلاءُ الشهوة، واستبطاءُ الوعد، وطولُ الأمل، ورُخَصُ التأويل، وإلفُ العوائد ، فهناك لا يمسك الإيمانَ إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا. اهـ

=== فنسأل الله: أن يزيدنا علما ويقينا، وطمأنينة به وبذكره، وإيمانا صادقا.

وخيار الخلق - أيضا - يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ(1) قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي(2) قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}==

(1) قال ابن عثيمين: هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} يعني: قد شرحنا لك؛ فمعنى {أو لم تؤمن} : ألست قد آمنت؛ لتقرير إيمان إبراهيم (ﷺ) . فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين ما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فأثبت شكاً فينا، وفي إبراهيم، وأننا أحق بالشك من إبراهيم؟ فالجواب أن الحديث لا يراد به هذا المعنى؛ لأن هذا معنًى يخالف الواقع؛ فليس عند الرسول ﷺ شك في إحياء الموتى؛ وإنما المعنى أن إبراهيم لم يشك؛ فلو قدر أنه يشك فنحن أحق بالشك منه؛ وما دام الشك منتفياً في حقنا فهو في حقه أشد انتفاءً. اهـ

(2) وفي الحديث (ليس الخبر كالمعاينة).

=== وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ(1) مِنَ الْمُوقِنِينَ} .

(1)الواو صلة وهذا فيه الإشارة إلى أن أعظم موجبات اليقين التفكر في آيات الله الكونية .

والحواريون خواص أتباع المسيح ابن مريم - حين طلبوا نزول المائدة، ووعظهم عيسى عن هذا الطلب - {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}(1). فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية إلى ذلك.

(1)قولهم { ونكون عليها من الشاهدين } أي لتكون مصلحة لمن بعدنا نشهدها لك، فتقوم الحجة ويحصل زيادة برهان بذلك .

& الفصل الثاني &

& في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان &

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية معرفة واتصافا - وذلك أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد. وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سببا وطريقا يوصل إليه. والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها، وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل.

أما المجمل فهو التدبر لآيات الله المتلوة من الكتاب والسنة، والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد(1)، والعمل بالحق(2)، فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم.

(1)قال تعالى { لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين } أي لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال ، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر ، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات .

(2)قال تعالى { إنما يتذكر أولوا الألباب } ثم ذكر أخصّ صفاتهم { الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق & وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ & وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} فمن أراد الانتفاع بآيات الله وبعقله فليلزم طاعةَ الله.

وأما التفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة.

- 1منها - بل أعظمها -: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.(1)===

(1)من كان لله أعرف كان منه أخوف ، وتأمل قوله تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} مع قوله تعالى { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } فالله تعالى خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه خلقهم للعلم والعمل.

=== فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما - مائة إلا واحدا - من أحصاها دخل الجنة» أي: من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها - دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.(1)===

(1)قال ابن العربي : شرف العلم تبع لشرف المعلوم ، والباري أشرف المعلومات فالعلم بأسمائه وصفاته أشرف العلوم .

=== ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول، بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

-2ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم. فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيمانا. كما قال تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} .

وكذلك إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف - تيقن أنه {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أمور كبيرة. قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} . وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة،(1)===

(1)من جهة زيادة يقينه وكذلك عظم رغبته في الخير وحسن الظن بالله تعالى فهذه أخصّ خصال الإيمان، قال ابن باديس: فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان .. كلّ هذا فصل في القرآن تفصيلا: كلٌّ فُصّل على غاية البيان والأحكام. فقوله تعالى { وكلَّ شيء فصّلناه تفصيلا } هذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كله من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به؛ فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان. اهـ وما أحسن ندمَ شيخ الإسلام في آخر عمره على أنه لم يشتغل طول عمره بتفسير القرآن .

=== فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة - يحصل له

من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟ !(1) . ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا(2) يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا(3)}===

(1)وتأمل قوله تعالى { أفلم يدّبروا القول } قال السعدي: فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر ، فدلّ هذا أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شرّ . اهـ هذا والاستفهام في الآية لإنكار الواقع لا لإنكار الوقوع . (2) هو محمد ﷺ . (3) وفي هذا إخبار بمنّة الله عليهم وتوسّلٌ إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم لأن الحسنات يذهبن السيئات.

=== 3- وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله - كلها من محصلات الإيمان ومقوياته.(1)===

(1)وتأمل قوله تعالى { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق } فذكر الله القرآن وما نزل من الحق السنة .

=== فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم. الذين حصل لهم

العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا آمنا بالجميع، فكلها من عند الله وما منه وما تكلم به وحكم به كله حق وصدق.

وقال تعالى: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وقال: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ(1) وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}(2)===

(1)وفي هذا دليل على أن أشرف العلوم علم التوحيد لأن الله تعالى شهد به بنفسه، وشهادته تعالى بكتابه المسطور وكتابه المنظور. (2) فمن لم يشهد هذه الشهادة ليس من أهل العلم .

=== ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح - استشهد بهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (1)===

(1)والآية قبلها { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ } أما قوله تعالى بعدُ {لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ} أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه {إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ} أي: عمرتم عُمْرًا يتذكر فيه المتذكر ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال. اهـ من تفسير السعدي

=== وأخبر تعالى في عدة آيات أن القرآن آيات للمؤمنين، [وآيات] للموقنين. لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره من العلم واليقين والإيمان. بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون علما وإيمانا ويقينا.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل الجالبة للإيمان، والمقوية له.(1)====

(1)وتأمل قوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين } فالقرآن أدوية وأغذية.

=== قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}

فاستخراج بركة القرآن - التي من أهمها حصول الإيمان - سبيله وطريقه تدبر آياته وتأملها، كما ذكر " أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه."

قال تعالى: {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}(1) أي: فلو تدبروه حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه من الكفر والتكذيب، وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.===

(1)الهمزة لإنكار الواقع لا الوقوع ، أما نحو " أأضرب أبي " فهي لإنكار الوقوع كما في قوله تعالى { أم جاءهم ما لم يأت آبائهم الأولين } .

=== وقال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ}أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

-4ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه - معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة.(1)===

(1)قالوا : " يا أفصح الناطقين الضاد قاطبةً & حديثك الشهد عند الذائق الفاهم & أخوك عيسى دعا ميْتا فقام له & وأنت أحييت أجيالا من الرِّمم " .وتأمل قراءة أبيّ {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم } قال ابن القيم: ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الأمهات فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغي إلى نور العلم والإيمان. اهـ

=== فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة، والدين الحق. كما قال تعالى: {أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ} أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}.

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق - بقوله: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}.

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة. فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} .

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا} وهو هذا الرسول الكريم: {يُنَادِي لِلْإِيمَانِ} بقوله وخلقه وعمله ودينه وجميع أحواله: {أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} أي: إيمانا لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله - توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات فقالوا: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} .

ولهذا كان الرجل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يتبادر إلى الإيمان [به ﷺ] ، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: " لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ " فقال: " ما أمر بشيء، فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء، فقال العقل ليته أمر به ". فاستدل العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته، فبادر إلى الإيمان [به.]

ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل، واعترف بذلك اعترافا جليا. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه، كما منع كثيرا ممن اتضح له أنه رسول الله حقا. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة عاجلا وآجلا.

ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظا ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة - أعظم إيمانا ويقينا من غيرهم، وأحسن عملا في الغالب.

- 5ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون، في خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات

المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان ويسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصا ما تشاهده في نفسك، من أدلة الافتقار، وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها.

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.(1)===

(1)قال ابن القيم : حق الله إزاء نعمه أن تستكثر قيلها عليك وتستقلَّ كثير شكرك عليها.

=== ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}

فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

-6ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد ذكر الله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان، بل هي روحه.

-7ومن الأسباب الجالبة للإيمان: معرفة محاسن الدين.(1)===

(1)قال زنديق " يدٌ بخمسٍ مئين درهم ودِيتْ & فكيف تقطع في ربع دينار" قال أهل العلم " عزّ الأمانة أغلاها & وأرخصها ذلّ الخيانة & فافهم حكمة الباري ". وكذلك لماذا في الميراث الذكر له حظ الأنثيين لأنه مظنة الإنفاق .

=== فإن الدين الإسلامي كله محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} . فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان، وفي الدعاء المأثور: " اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتديين."

8- ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان .(1)===

(1)وتأمل حديث (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت).

=== في عبادة الله والإحسان إلى خلقه. فيجتهد أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه، فإن لم يقو على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه. فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه. ولا يزال العبد يجاهد نفسه؛ ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين - الذي هو أعلى مراتب اليقين – فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق - بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع(1) - هو من الإيمان ومن دواعي الإيمان. والجزاء من جنس العمل. ===

(1)قال شيخ الإسلام " فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى " . وفي الأثر " أحبّ الخلق لله أنفعهم لعياله " وفي الحديث (البرّ حسن الخلق) وتعريف جزئي الإسناد يفيد الحصر، فمن لا خلق له فليس من الأبرار .

=== فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه - أحسن الله إليه أنواعا من الإحسان، ومن أفضلها أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله وبعباده. فإن «الدين النصيحة» ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق، فقد تحقق نصحه.(1)===

(1)ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين : كن مع الحق بلا خلق وكن مع الخلق بلا نفس.

=== ولذلك قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، متفق عليه.

-9ومنها قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} . .. الآيات. فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره. كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله، من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع

التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص: 80)

وتقدم: أن الله سمى الصلاة إيمانا، بقوله: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} وقوله: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}. فهي أكبر ناهٍ عن كل

فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه لقوله: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها كما قال النبي ﷺ: «والصدقة برهان» أي: على إيمان صاحبها. فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولا وفعلا - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان .(1)===

(1)وتأمل حديث (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكرا لله} فإن قيل اللّغو منه ما هو مباح ، فكيف يكون عليك ؟ نقول جاء عن النبي ﷺ {من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه} . فإذا خاض فيما لا يعنيه؛ نقص من حسن إسلامه فكان هذا عليه. إذ ليس من شرط ما هو عليه أن يكون مستحقا لعذاب جهنم وغضب الله بل نقص قدره ودرجته عليه.اهـ شيخ الإسلام

=== ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: " اجلس بنا نؤمن ساعة " فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى إجابةً لداعي الإيمان، وتغذيةً لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان. وفي الحديث: (لا إيمان لمن لا أمانة له)

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله هل يرعى الأمانات كلها مالية، أو قولية، أو أمانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟. (1)===

(1)وتأمل حديث (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) فتقوى الله توجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته ، وفي الحديث (ما حسدتكم اليهود حسدها على التأمين والسلام)

=== فإن كان كذلك، فهو صاحب دين وإيمان. وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات - على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها - لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء

الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان - كما تقدم - محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي - وهو: المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات - وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة؛ وهو العفة عن المحرمات قولا وفعلا. فمتى تمت هذه الأمور حي هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

-10ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه(1) والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.===

(1)فالدعوة إلى الله من أخص صفات الصالحين والغرباء، وتأمل قوله تعالى { فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ} .

=== وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره. كما أقسم تعالى بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل

الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله؛ يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان . (1)===

(1)وتأمل حديث (الدين النصيحة) فيه تعريف جزئي الإسناد فأفاد الحصر والقصر ، فالدين لا يقوم إلا بالدعوة والنصيحة، وتأمل قوله { قل هذه سبيلي } فيه أن الطريق واحد لأجل تعريف جزئي الإسناد ، ثم ذكر أخصّ شعب سبيله فقال { أدعو إلى الله }. والله المستعان .

=== وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها. وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.(1)===

(1)قال شيخ الإسلام : فترك أهل العلم لتبليغ الدين كترك أهل القتال الجهاد . اهـ

=== وأيضا: فإن الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك - لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه، وروح وقوة إيمانه، وقوة التوكل. فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء، من شياطين

الإنس، وشياطين الجن. كما قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}

وأيضا: فإنه متصد لنصر الحق، ومن تصدى لشيء، فلا بد أن يفتح عليه فيه - من الفتوحات العلمية والإيمانية -. بمقدار صدقه وإخلاصه.

-11ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.(1)===

(1)قال ابن القيم : فاذا كان القلب ممتلئا بالباطل اعتقادا ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضعٌ كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه ، وسر ذلك ان إصغاء القلب كإصغاء الأذن فاذا أصغى الى غير حديث الله لم يبق فيه اصغاء ولا فهمٌ لحديثه كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته. اهـ

=== فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك - من دفع الموانع والعوائق وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة

له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه - لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه، وقوي يقينه، وصار مثل بستان إيمانه: {كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

ومتى كان الأمر بالعكس - بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء،

ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما -. انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} .

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علما، وعملا، حالا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيرا ذليلا: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.

& الفصل الثالث &

& في فوائد الإيمان وثمراته &

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة. وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجني اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر، أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها - عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل.

- 1فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات

الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل: بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى. فإن التقوى تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

-2ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ(1) مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} .===

(1) قال ابن القيم : تأمل كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرا(أ) مخبرا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة، فرحمة الله أوجبت لهم المساكن الطيبة ، ورضوانُ الله أوجب لهم النظر إلى وجهه الكريم . اهـ

(أ)والتنكير يدل على جنس الرضوان ، وإنما لم يقرن بـلام تعريف الجنس ليُيتوسل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم .

=== فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة - بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.(1) فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.===

(1)قال ابن القيم : ولمّا كان هذا أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال. اهـ

=== 3 ـ ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار، والإيمان - ولو قليلا - يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيمانا - أدى به الواجبات، وترك المحرمات - فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ - في هذا الأصل. كما تواتر عنه أنه «لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيرا».

-4ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: {إِنَّ(1) اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} أي: يدافع عنهم كل مكروه(2)

يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.===

(1)وافتتاح الآية بحرف التوكيد لمجرد تحقيق الخبر وإمّا لتنزيل غير المتردّد منزلة المتردّد لشدة انتظارهم النصر واستبطائهم إياه . (2) وحذف المتعلق في الآية يفيد العموم.

=== ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس -عليه الصلاة والسلام- وأنه {فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} ، قال: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} إذا وقعوا في الشدائد، كما أنجينا يونس. قال النبي ﷺ: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته - {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ} أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه، {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} أي: من كل ما ضاق على الناس: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} .

فالمؤمن المتقي ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم

فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب. (1) وشواهد هذا كثير، من الكتاب والسنة.===

(1)لأنه ينافي كمال فضل الله أن تعامله نقدا ويعاملك نسيئة وتأمل قوله تعالى { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ & أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .

=== 5 ـ ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح - الذي هو فرعه - يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.(1)===

(1)قال ابن القيم : وأيُّ حياة أطيبُ من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هي واحدة في مرضات الله. اهـ

وفي الحديث (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له). قال ابن القيم : ومن أبلغ العذاب في الدنيا : تشتيت الشمل وتفريق القلب وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب. اهـ وكان ابن مسعود يقول في دعائه " اللهم إني أعوذ بك من تفرقة القلب " فقيل له " وما تفرقة القلب ؟ " قال " أن يجعل لي في كل وادٍ مالٌ " .

=== 6 ـ ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص.(1)===

(1)قال ابن القيم : وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة فان الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه. اهـ وكان من دعاء عمر رضي الله عنه " اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا " .

=== ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل مثل قوله: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ} أي: لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله، بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.(1)===

(1)ويومُ القيامة عرس المتقين .

=== وقال: {وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}. والسعي للآخرة، هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه، كان السعي مشكورا مقبولا مضاعفا، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العملُ الإيمانَ، فلو استغرق العامل ليله ونهاره، فإنه غير مقبول. قال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} .

وذلك؛ لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} فهُمْ لمّا فقدوا الإيمان، وحلّ محله الكفر بالله وآياته، حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} . {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} .

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجبُّ ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان والقادحة فيه، والمنقصة له - تجبُّ ما قبلها.

-7ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وبهديه الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب والمسار بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ} .(1) وقال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ}(2)===

(1)حذف المتعلق يفيد العموم أي عموم خير الدنيا والآخرة . (2)فتعرّف إلى الله في الرخاء بالإقبال على طاعته يعرفك في الشدّة بأن يلهمك الصبر أوالرضا عند المصيبة فالخواتيم ميراث السوابق .

=== قال بعض السلف: " هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم."

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها ... وذلك؛ لقوة إيمانه، وقوة توكله؛ ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر قال تعالى: {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}

ولهذا تجد اثنين تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة - وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له - تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

وكما أنه يسلي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلي عند فقد المحاب. فإذا فقد المؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه - من أهل وولد ومال وصديق وشبهها - تسلى بحلاوة إيمانه، والإيمانُ خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب - في الحقيقة - معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم، بحيث قال لإخوته - لما طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب

معهم ليرتع ويلعب - {قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ} فأخبر أن المانع له من إرساله؛ أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم؛ فأرسله {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} . فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه - هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟ ! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله - أوجب له أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وعد به المؤمنون.

وكذلك؛ أم موسى - حين ذهبت اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغا من كل شيء إلا من الحزن على موسى - لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق - لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها. ولكن هو الإيمان، المثبت عند الشدائد، المسلي عند المصائب، المقوي إذا وهنت القوى، المعزي إذا عز العزا.

وقال النبي ﷺ، في وصيته العظيمة - في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في السنن: " «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة» " أي: تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان - وأنت صحيح غني قوي - يعرفك الله في

الشدة ويقويك الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها. وأعظم شدة - تنزل بالمؤمن - شدة الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن - قد تعرف إلى ربه في رخائه - أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

-8ومن ثمرات الإيمان ولوازمه - من الأعمال الصالحة - ما ذكره الله بقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حيا وميتا، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

وهذه أيضا من أجل ثمرات الإيمان، أن يجعل الله المؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل - لسان صدق - ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}

فبالصبر واليقين - اللذين هما رأس الإيمان وكماله - نالوا الإمامة في الدين.

- 9ومنها: قوله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} .

فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده في الدنيا والآخرة.

وإنما نالوا هذه الرفعة بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

- 10ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه.

كما قال تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} فأطلقها؛ ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} .

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} فنفى عنهم الخوف لما

يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم. وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة، أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} . ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} .

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه، وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة، مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

-11ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح - الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب - والهدى الذي هو أشرف الوسائل.

كما قال تعالى - بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان - قال: {أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} . فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل.

فلا سبيل إلى الهدى والفلاح - اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما - إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

-12ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات.

قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ}.

وهذا؛ لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه علما وعملا. وكذلك معه الآلة العظيمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضا فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد. ومن كان كذلك انتفع بالآيات.

ومن لم يكن كذلك، فلا يُستغرب عدمُ قبوله للحق، واتباعِه له. ولهذا يذكر الله - في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول، وقبول الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو الكفر الذي في قلوبهم. يعني؛ لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة، والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه. أي فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر.

-13ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: (عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن). والشكر والصبر هما جماع كل

خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي الصحيح عنه ﷺ: (لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى - إلا كفر الله عنه بها من خطاياه)

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء، نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك. وبذلك تتم عليه النعمة. ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي [هي] أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه. لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

-14ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم.

قال الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}

أي: دفعَ الإيمانُ الصحيح الذي معهم الريبَ والشك(1) الموجود، وأزاله بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.===

(1)كثير من الناس لا يفرق بين الريب والشك، فالريب متعلقه عمل القلب والشك متعلقه علم القلب ، فلا تقول " ارتبت هل طلعت الشمس أم لا " وقال بعض أهل العلم " الريب شك مع قلق " وبعضهم قال " شك مع وجود تهمة "

=== ولهذا ثبت في الصحيحين - من حديث أبي هريرة - أن النبي ﷺ، قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك، فليقل: آمنت بالله ولينته، وليتعوذ بالله من الشيطان. «

فذكر ﷺ، هذا الدواء النافع، لهذا الداء المهلك، وهي ثلاثة أشياء، الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها، ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الآمنين.

وذلك؛ لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها: العلم أنه مناف للحق، وكل ما ناقض الحق فهو باطل، {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} .

15- ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

فعند المحاب والسرور، يلجأون إلى الإيمان فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك من الثواب، ويقابلون الأحزان والقلق براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيمانا وثباتا، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ} لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجأون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعدم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} .

وقال ﷺ: (مثل المؤمن ومثل الإيمان كالفرس المربوط في آخيته يجول ما يجول، ثم يعود إلى آخيته)

كذلك المؤمن يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعا إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده. وذلك من فضل الله عليه، ومنه.

-16ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة.

كما ثبت في الصحيح - عن النبي ﷺ - أنه قال: «لا يزني الزاني - حين يزني - وهو مؤمن ولا يسرق السارق - حين يسرق - وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر - حين يشرب - وهو مؤمن» الحديث.

ومن وقعت منه فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه. وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه، والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه الأمور - التي هي من مكملات الإيمان - لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

فأخبر؛ أن الإيمان إذا صحبه - عند وجود أسباب هذه الفواحش -؛ فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله - الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك - يمنع من مواقعة هذه الفواحش.(1)==

(1)وتأمل قوله تعالى { ولباس التقوى ذلك خير } فسمّاه لباسا لأنه يستر عورة ظلم العبد وجهله .

=== 17 ـ ومنها: أنه ثبت عنه [ﷺ] في الصحيحين - من حديث أبي موسى رضي الله عنه- أنه قال: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة(1) طعمها طيب، وريحها طيب.(2) ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، كمثل التمرة طعمها طيب، ولا ريح لها)===

(1)نوع من الفاكهة لها ريح وطعم طيب . (2) وهذا فيه أن هذا صاحب دين وخلق ، وتأمل قوله تعالى { فالصالحات قانتات حافظات بالغيب } فقوله { قانتات } دليل على حسن خلقها ، وقوله { حافظات ...} دليل على حسن دينها ، فمن بركة القرآن حصول خصلة حسن الخلق التي هي أكمل خصال الإيمان .

===وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام:

]الأول] : خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين. فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره؛ مبارك أينما كان. كما قال الله تعالى عن عيسى [عليه السلام] : {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ} .

(والثاني) : طيب في نفسه، صاحب خير. وهو المؤمن الذي ليس عنده من العلم، ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة؛ والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

(والقسم الثالث) : من هو عادم للخير، ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

(والرابع) : من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه، وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى، قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» .(1)===

(1)قال ابن عثيمين " فهو خير من الكافر بلا شك ، وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون الاحتراز ".

=== فقسم - ﷺ - المؤمنين، إلى قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه، وفي نفعه لغيره. وقسم ضعيف في هذه الأشياء. ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير؛ لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

ومثل هذا قوله ﷺ: (المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم)

ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان، فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر على نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه، وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر. وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد، صارت شرا؛ لأن الخير الذي معه، يقابله شر نظيره فيتساقطان، ويبقى الشر - الذي لا مقابل له من الخير - يعمل عمله.

ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

& الخاتمة &

فتبين مما تقدم أن هذه الشجرة المباركة - شجرة الإيمان - أبرك أشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها الإيمان وعلومه، ومعارفه وساقها وأفنانها شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر، السمت الحسن، والهدي الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناء عليه، والنفع لعباد الله - بحسب القدرة - نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال. وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة - في قلوب المؤمنين - متفاوتة تفاوتا عظيما، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به من هذه الصفات.

وأن منازلهم في الآخرة تابعه لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها [له سبحانه] . {بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوءوا منازلها - معترفين بفضل ربهم العظيم - {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية، وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به وهو العمل الصالح الذي هو الإيمان وأعماله.

فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالإيمان الصادق، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة. إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .